# الفصل الحادي عشر

# الحـرب الأهلـيـة ـ ٢

الحقيقة البارزة في المرحلة الأخيرة لادارة اللورد (ويڤلْ) كنائب للملك، من (١) كانون ثاني ـ يناير ـ إلى (٢٢) آذار ـ مارس ـ ١٩٤٧، هي الانتشار التدْريجيّ المتنامي للاضطرابات الطائفية من مناطق سهول نهَرْ الغانْج شَرْق (دلْهي) حيث التأثّر الشديد إلى البَنْجابْ ومنه إلى ديار الباثان. ولم يقتصر الأمر على المدن مثِلْ (أمْرِ سْتَارْ) و(لاهور) بلْ وَصَل إلى أعماق المناطق الريفية. ويبدو أنّه لم يكنْ هناك شيء يُوقِفُ هذه الاضطرابات. ومثل ـ الإنْتانِ الدمويّ «Septecemia» ـ القديم قبلَ أيام علاج (السُلْفَا) Sulfa ـ انْتَقَلَ من الطرف الشرْقيّ للجسْم السياسيّ في الهنْد دون أيّ تمَهُّل، إلى أجزاء أكثر حيويّةً واسْتَعداداً للحَرْب ونَمَتْ الهواجسُ المتجهّمة في الجيش وبين الاداريين المدنيّين وغيرهم إذْ أدْركوا الأهميّة الخاصّة للبنْجاب، كما ورد، بوضوح في كُتب مثْل كتابَيْ (تَاكِرْ) و(مُوْن).

والسبب في ذلك راجع إلى حقيقة أن أكثر من رُبْع القوّات المسلحة هي من ولاية (البنجابْ)، كذلك، هناك عدد كبير من مناطق الباثانَ الأقلّ سُكّانا. وفي عام ١٩٣٩م كانَتْ نِسْبَةُ البنجابيين في الجيش أَعْلى إذْ وصلت ٤٨٪ من مجموع الأفراد. ولكن أثناء الحرب زاد حَجْم الجيش زيادة كبيرة من أبناء أجزاء أخُرى مِنْ شِبْهِ القارّة لم تكن معتبرة ـ في الماضي ـ صالحة للجندية مثل جنوب الهند مثلاً؛ لذلك قَلّتْ مُوقّتاً نِسْبَة البنجابيين رغْم بقاء عددهم مرتفعاً كالسابق بل زاد عنه. والآن في كانون ثاني ـ يناير ـ عام ١٩٤٧ ارتفع عدد البنْجابيين مرّة أخرى فزادت النِسْبةُ ٣٪ في أقلّ من عام، وبصورةٍ استثنائية كانَتْ بيوت وعائلات كثير من الجنود في أرياف البنْجاب وقُرى الباثان، وكثير من متقاعدي الجيش كانوا يعيشون هناك أيضاً، ومَعْرفة استعمال السلاح كانت واسعة هناك، وكان يُعْتَقَدُ بوجود كميات غير قليلة من السلاح غير المرُخّص التي احْتُكِرتْ وهُرّبت بَعْد الحرب إلى تلك المناطق. لذا إذا قامت اضطرابات طائفية هناك أدّتْ إلى وفيات واغتصاب وتشْويه لنساء واطفال الجنود العاملين أو تْخريب محاصليهم وبيوتهم؛ وإذا انتَشَرَتْ أخبار تلك الاضطرابات، أو حتى الإشاعات عنها فقط، تتأثرُ معنويات القوّات المُسَلحة ويَهْتَزُّ تماسكها عِبْر كُلّ شِبْهِ القارّه وتَوَتُّراً شديداً وقد يكون وراء ذلك مخاطر لا يمكن تقديرها؛

وكان التوتّر موجوداً أصلاً، ولو تحتَ السَطح، منذ حادثة الجيش القومي للهنْد وتَمَرُّد القوّات البحرية قبل عام؛ لذا فالنتائج كما قُدِّر، كانت ستُؤدي لكوارث ضخمة.

وكان لِمنَطْقة البنْجاب في الأصل وَضْعٌ غير صحِيّ من الوجهة السياسية. لم يَحْدثُ بها اضطرابات خَطيرة وهذه حقيقة تَفَاخَرَ بها كثيراً الإداريون المدنيّون عندما قَارنوا وَضْعَهمُ بما يجري في الجنوب الشرقيّ من البلاد. ولكن كانت التشْكيلةُ الوزارية ـ مثل الموسم البارد عام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ ـ ضعيفةً جّداً ومُهْتزَّة. وكما وَرَدَ في الفصْل الرابع، جَرَتْ انتخابات عامة في كلّ أنحاء الهنْد فكانت النتائج في البَنْجَاب غريبة، كان يحكم الولاية في السنوات الأخيرة الإتحاديّون ـ وهم حزب غير طائفي موجود فقط في البنجاب ـ مؤلف من مسلمين وهندوس وسيخ جُلّهم يُمثلون الريف، ولقد كان للحزب احترام لانه حافظ على مصالح أصحاب الأراضي والفلاّحين معاً في مواجهة المرُابين الجَشعين وطبقة التجار؛ وحفظ كذلك الأمْن والسلام بين الجاليات الثلاث. إلا أن المجموعة المسلمة فيه ـ وكانَتَ الأضخم ـ لم تستطيع مواجهة المشاعر الطائفية الثائرة ضدّ الدعوة لباكستان في أجزاء أخرى. وفي الانتخابات خسرت تقريباً كُلّ مواقعها للرابطة الإسلامية؛ إذ نَجحَ من مرشحيها سبعةٌ فقط في مقاعد المسلمين الستّة والثمانين (٨٦) في مجلس تِعْدادُه ١٧٥ نائباً. وانْتِصار الرابطة الإسلامية في الولايات الأخرى كان كبيراً أيضاً فلقد رَبحتْ ما مجموعه (٤٢٨) مقعداً من مجموع (٤٩٢) مقعداً مُخصصاً للنواب المسلمين في الولايات بينما لم تربح الرابطة في الانتخابات السابقة إلا مئة وتسعة مقاعد (١٠٩) أما في العاصمة فقد ربحت كُلّ المقاعد المخصصة للمسلمين وعددها ثلاثون؛ وهكذا تقوّى موقفها بصورة كبيرة في كل أنحاء البلاد؛ وفي بَرْلمان البنجاب أصبحت الرابطة أكبرحزب بِرلماني ذي سمعة عاليه جدّاً لم تَعرِفْها قبلاً.

ولكن النظام الانتخابيّ الذي أَدْخَلَهُ البريطانيون للهند كان يُحَابي إلى حدٍ كبير، وعن قَصْد الاقلّيات في الولايات، ومن السخرية أن ذلك جاء بعد طلب الرابطة لذلك. ومن هنا فقد حصل المسلمون على مقاعد أكثر مما يَسْتَدْعيه عددهم في الولايات ذات الاغلبية الهِنْدوسيه مثل ولاية أوتاربرَاديش بينما حصل العكس في البنجاب؛ فمع أن المسلمين يمثلون ٥٧٪ من السكان هناك لم يحَصلو إلا على ٥١٪ من المقاعد، وهذا ما أدّى لنتائج مزعجة بعد انتخابات عام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦، فرغم اكتسَاحِها الانتخابي الكبير لم تتمكّن

الرابطة من الحصول على أغلبيةٍ مطلقة تمكّنُها من تَشْكيل حكومة؛ لذا ومَعَ دَهْشةِ غالبيّة الشعب شَكلَ المسلمون في الحزب الاتحادي الضعيف، مع الهندوس وحزب السيخ القومي حكومة ائتلافية مُسْتعْجلة دَخَلَها أعضاء من حزب المؤتمر وحزب (الأكالي) السيخي وأقنعوا الحاكم السِرْ (برْتْرَانْدْ غْلاَنْسْ) انهم يستطيعون اسْتلام الحكم وأصبح عضوُ الحزب الاتحادي السِرْ (خُضْر حياة تيوانا) المسلم رئيساً لوزارة الولاية.

وغضبتْ الرابطة غضباً شديدا لِتَضْييع فرصة انْتصارها في هذه الفترة التاريخية الحرجة حيث تُرتَقَبُ قرارات دستورية هامّة؛ وحصول ذلك بالذات في البنْجاب حيث تُعتبر الولاية محوراً لمشروع باكستان أثار السخْطَ الشديد والنقْمة للشعور بالارتباك فلقد خُدِعِ المسلمون مرّةً أخرى على أيدي أناسٍ أَمْهَرَ منهم ولكن ليسوا أحَقّ منهم؛ وهذا مازاد باستمرار، في سوء العلاقات الطائفية؛ وإذا نظرنا نظرة للخَلْف يبدو من العجيب أن الاضطرابات لم تبدأ قبل أشهر عدّة. لقد كان قرار حاكم البنْجاب مقبولاً من الناحية الحِسَابيه إذ كان عدد النواب المؤيّدين للحكومة (٨٨) نائباً ومع الرابطة (٨٧) ولكنّه عَرّضَ نفسه لانْتقادات حادّةٍ من قِبَل مراقبين بريطانيين محايدين كذلك من قِبَل أعضاء الرابطة في نُقطتَيْن: أوّلا أُتْهِم أن له علاقات شخصية سابقة وحميمة بأعضاء الحزب الاتحادي، وثانيا: من الواضح أن الائتلاف الجديد افْتُعِلَ بسرعة من عناصر متنافرة، وإذا تأمّلْنا الآن نرى بوضوح أنه كان غلطةً اسهمت بشدّة في حصول الكارثة فيما بعد. ويعتبر (مُونْ): «إنّه من المذهل رضَى الحاكم دون أيّ اعتراض بوزارة مُضِرّةٍ جداً بالصالح العام كتلِك الوزارة»

ومع ذلك، فالجهود المبدئية التي كانت مستمرّة لمدّةٍ من الزمن للوصول إلى تفاهم بين المسلمين و(الأكالي ـ السيخ) حول سلام مُسْتَقْبليّ في البنْجاب، والتي اشترك فيها بالمناسبة (مُونْ) نَفْسه... لم تتحطّم كُلياً. وكان من المعتقد انّها إذا نجحتْ فستنحلّ كل مشاكل ولاية البنْجاب تقريباً. وفي الشتاء التالي (١٩٤٦ ـ ١٩٤٧) قامت مباحثات شخصية بين (الأكالي ـ السيخ) وممثلي الرابطة على أساس المبادرة السابقة. وفي ذلك الوقت لم يتخيَّلْ أحد أن البنْجاب أو البنْغال سَيَنْقَسِمان إذا حصل تقسيم الهنْد. وكان الافتراض أنه في حالة وقوع التقسيم ـ وكان اكثر الهندوس أو السيخ يعتقدون أنه قليل الاحتمال ـ سيقوم التقسيم على أساس ولايات كاملة أي أن وطن السيخ في البنْجاب ذي الغالبيةِ المسلمة سيكون جزءاً من باكسْتان. وكان زعماء (أكالي) من السيخ يريدون اكتشاف ما إذا كان لدى

الرابطة أفكار تَسْتحقُّ الإنْصَات لها عن وَضْع السيخ في الدولة الجديدة ذات الشَطْرَيْن.

ولأسْباب تتعلقُ بسمعتهم لم يكن تحرك السيخ هذا أمراً هيّناً بالنسبة لهم، فالمقرّرات المعادية والتي اتخذها المجلس المِلّي للسيخ في ١٠ حزيران ـ يونيو ـ ردّاً على اقتراحات البعثة الوزارية البريطانية عن التجمعات . grouping ـ ، أقول كانت هذه المقررات تُشكل عائقاً؛ ويَبْدو أن الرابطة، من جَانبها، لم تَقُمْ بأي تحرُّك يُثير اهتمام السيخ مُنْذ نيسان ـ إبريل ـ عندما دُعيَ زعماء السيخ، بما فيهم (جياني كِرْتَارْ سِنْغ)، وحضروا بالفعل الاجتماع الكبير في (دلْهي) لأغلب أعضاء الرابطة الذين نجحوا في الانتخابات التشريعية وكان مجموعهم (٤٢٨) ـ وهذا أمر لم يذكْره بعد ذلك إلا قليل من الناس. ولم تُثْمِر تحرّكات زعماء السيخ شيئاً حسَبْ معلومات كاتب هذه السطور، فلقد فَشلوا في الحصول على ما يعتبرونه ردّاً واضحاً وحُوّلت تساؤلاتهم إلى أعلى مستويات الزعامة في الرابطة ولكن جاء الجواب فقط بالتأكيد على أن السيخ سيعاملون معاملةً عادلةً في باكستان ويجب أن يتكلُوا على المشاعر الحسنة والنيةِ الطيبة لزعماء المسلمين آنذاك. وشعر السيخُ أن ذلك الردّ لم يكن كافياً، وانهم يستطيعون الحصول على أفضل منه من حِزْب المؤتمر الذي كان أكبر وأقوى وكانت ميولهم نَحوْهُ أكثر وداً. واسْتخلصوا من موقف الرابطة أن الردّ عليهم كان رفضاً مدروساً... وربما لم يكن هذا ما عناه رَدُّ الرابطة. ربّما لم يركّزِ السيد جناح والسيد لياقت علي خان، وكلاهما لا يعرفان السيخ بعُمْق، أفكارهما كُلّها على هذه القضيّة، ومن هنا شَعَرا أنّهما غير قادَريْن على إعطاء أية وعود. وبالنَظَر لهذه القضيّة الآن في ضوء ما حدث بعد ذلك، يبدو انّها كانت ـ بغَضِّ النظر عن التفسيرات التي قُدّمَتْ ـ نقطة تحوُّل هام في تلك السنة الحاسمة.

من السهل الآنَ انْتقاد زعامة الرابطة على بَعْض أوجه سلوكها خلال السنوات القليلة التي سبقت التَقْسيم، هل كان السيد جناح بحاجة لموقفه الصَلْب آنذاك؟ ألم يكن الموقف التصالُحِيّ أجدى وانفع بالنسبة للقضيّة الكبرى عن مُسْتَقْبل السيخ أوقضايا أخرى تمسّ العلاقات الشخصية مثل المستقبل السياسي للشيخ عبد الله في كَشْمير أو الإخوة (خان) في الولايات الشماليه الغربية؟ ويمكن الجدال في هذا الموضوع سلبا وإيجابا؛ من جهة يمكن القول: أنه لم يكن غير التصَلُّب الكامل والتركيز القوي على الهدف الواحد قادرَيْن على إقامة باكستان.. ذلك المشرع الذي كان يبدو آنذاك حَدَساً تخمينياً بالنسبة لكثير من أعضاء

الرابطة؛ فكان عدم ثبات الموقف ـ يَجْعَلُ أيّ ضَعْفٍ يبدو أو تردد يظهر أو ميل للحلول الوسط سبباً يُعرّض المشروع رأساً للتدمير. أمّا الموقف بالنسبة لـ (أكالي السيخ)، من الناحية الأخرى، فيمكن اعتباره فرصة كبرى قد ضاعت وأن ردّاً أقلّ خواءً مما كان ربما منعَ المذبحة والتقسيم اللذين حصلا في البنْجاب ـ بعد ذلك ـ بالاضافة إلى أن الأمر كان سيقود إلى قيام باكستان أكبر حجماً ومساحة وأكثر قوّة اقتصادية وعسكرية مما حدث. وذكريات الصدام المرير السابق يجب ألاّ تمنع دائماً ـ على رأي النُقّاد ـ من قيام شراكةٍ مُجدية. فالشعوب تَنْسى والناس ينسون؛ فمثلاً، بعد تِسْع سنوات فقط من قيام ثاني حرب عالمية بشراسَتِها المدمرة خلال جيل واحد، أصبحت بريطانيا والمانيا حليفَتَين في منظمة حلف شمال الأطلسي. اليس ذلك شيئاً مُذهشاً؟ أو لنأخذ مَثَلاً أصْغَر له تأثيره المباشر على العلاقات بين المسلمين والسيخ: ما رأيكمُ في اضطرابات البِنْغال في ربيع عام ١٩٥٠م عندما وقفت الهنْد وباكستان على أهْبَةَ حرب، لقد تناسى السيخ الماضي في (كلْكتّا) وعَرّضوا أنفُسهم وسيّاراتهم للدماء في سبيل مساعدة الأقلية المسلمة التي كانت ضحية تهجمات عنفية من رعاع الهنْدوس. فلقد تبخرتْ الروح العدائية القاتلة التي أدّت لذبح المسلمين في المذبحة الكبرى في آب ـ أغسطس ـ ١٩٤٦. فالهندوس البنغاليون هم الآن، بصورة واضحة، الطائفة الأكثر كُرْها لدى السيخ. ففي شبه القارة، كما في غيرها، قد لا تدوم الذكريات ... طويلاً.

ومع ذلك، ومهما كانت قيمة ما سأذكر، فإن زعامة الرابطة، إذا ضيعت فرصة شتاء عام ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧، فإنها لم تضيع، برأيي، شيئاً يُذكر آنذاك لانه لم يكن من الممكن حصول تقارب ثابت بين المسلمين والسيخ؛ وأعترف أن هذا الرأي مبنيّ على الحدس لا على العقل، مبنيّ على أحاسيس وذكريات لما كان عليه المزاج العامّ للطرفين آنذاك، وقد لا يوافقني على هذا الرأي بعض المراقبين الذين كانوا في شِبْهِ القارّة. من المؤكد أن باكستان كانت ستُصبحُ دولة مختلفة تماماً لو دخل السيخ في نطَاقِها. ولكنهم ـ أي السيخ ـ منذ ذلك الحين بدوا أحياناً كعُنْصُرِ اضطراب للهند إبان حُكم السيد (نهْرو) ومن الممكن انهم كانوا سيُشكّلون عُنْصُرَ اضطراب أكبر لباكستان الدولة الأصغر والأقلّ صلابة!

والتساؤلات عن إمكانية تَغير الاحداث لو أن زعماء الرابطة الإسلامية أعاروا انتباها أكْبَرَ لمَشَاكلِ السيخ ـ لما كانت لا تزال مائعة ـ ولو أنّهم وقفوا موقفاً أكثر تسامحاً خلال

تلك الأسابيع القليلة العصيبة من شتاء ١٩٤٦.١٩٤٧ قبلْ حلول الكارثة في البنجاب، أقول هذه التساؤلات هي عملية تحليل تاريخي مشروعة. ومعلوماتنا اليوم عَمّا حدث رأساً بعد تلكَ الأسابيع العصيبة تُبْرِز بوضوح حَجْم القضايا التي كانت قائمة آنذاك.

في أواخر خريف عام ١٩٤٦، ومَعَ استمرار الحرب الأهلية على مستوى مُنْخَفِض في أجزاء كثيرة في شرق سهول نَهْر (الغانْجْ) في (نواكالي) وحول (كلكُتا) و(بيهارْ) وشعاب (أوتاربرْاديشْ) امتلأت الهنْد بالجيوش الخاصة وظهر المتطوّعون المُهْتاجون لِدَعم مصالح الجاليات المتناحرة، وكانت هذه الحقيقة هي التي أدت في البنْجاب، بالنهاية إلى حصول الكارثة. كان للهْندوس تنظيم (أرْ . إسْ . إس. إسْ( R S.S.S) والتنظيم الأقل تطرّفاً (congress Seva Dal)، وكان للمسلمين الحرس الوطني للرابطة؛ وللسيخ فوج (أكالي) و(شَهيدي جات هاثْ)، وكان هناك منظمات ثانوية مثل (القُمْصان الحُمْر) و(الخكْسَارْ) وغيرها. وفي أوائل عام ١٩٤٧ عندما وَعَتْ الوزارة الائتلافية برئاسة السِرْ خِضْر حيات أن وجود هذه الجيوش الخاصة يثير المخاطر، واعتقاداً منها أن التوتّر الطائفي في ولاية البنجاب بلغ حدّ الانفجار، ولمعرفتها إن الاضطراب في البنجاب، لأسباب عسكريّة، سَيُغْرِق البلاد كُلّها في الفوضى، قرّرت مَنْع هذه الجيوش كذلك مَنَعَتْ الاجتماعات السياسيَة ومظاهرات الشوارع وأعْلَنَتْ ذلك في ٢٤ كانون ثاني ـ يناير.

كان قراراً إداريّاً مُسْتقيماً ولكنّه مُتَسَرّع لانّه سار في اتجاه معاكس للوقائع. ولقد افتقدت الوزارة القوّة التنفيذية تماماً. وأعطت الرابطة فرصةً مُذْهِشةً للانتقام، ربّما كانت الرابطة تنتظر مثل ذلك. لذا أعلن زعماء الرابطة رأساً أنه نظراً للحالة السائدة في البنجاب لايَعْني هذا (المَنْعُ) في الواقع إلا هدفاً وحيداً هو (الرابطة)، الحزب الذي كان سَيَسْتَلِمُ الحكم لولا التآمر الدنيء بين الهندوس والسيخ والرسميّين البريطانيين المَحلّيين، وأن مِثْلَ هذا العدوان على الحريّات الديموقراطية من نظام يُمَثّلُ الأقليّة أمر لايمكن تحَمُّلُه؛ ولذا سيبدؤون نضالاً شاملاً غير عنيف هدفه إسقاط الوزارة. والنيّة في الحقيقة كانت لِجَعْلِ البنْجاب حَقْلَ التجربة الرسميّة الأوّل لقرار الرابطة في «العَمَل المباشر» الذي اتّخذتْهُ في تَموّز ـ يوليو ـ السابق.

وأثْبَتَ النضال أنّه مُنظم وبِدِقّةٍ ساخرة عكس الأساليب التي اسْتَعملها حزب المؤتمر في حملات العصْيان المدني المتكرّر التي قامت ضدّ البريطانيين منذ العِشْرينات. ولقد

اعْتُقِلَ الآلاف من المتظاهرين المسلمين نساءً ورجالاً، الذين قدَّموا أنفسهم لدخولِ السِجْن مُخْتارين يريدون الاستشهاد. واكتظّت السجون بالمعتقلين؛ وكان التوقيف للزعماء القياديين فقط ونُقِلَ المتظاهرون الباقون بالسيارات الشاحنة (اللوري) إلى مناطق بعيدة ثم تُركوا هناك ليعودوا بعد ذلك وحدهم، حسْب استطاعتهم إلى بيوتهم. وهذه الطريقة زادَتْ مَن انْتِباه الناس لحركة العصيان المدني. وبَعْد فترةٍ قصيرة تعرّضت وزارة كان بها أحد أعضاء حزب المؤتمر، والتي حباها زعماء حزب المؤتمر في (دِلْهي) العطف والودّ الشديدَيْن، إلى مضايقات من قبل القوى الشعبيّة المسلمة والتي عاني منها الإداريون الأجانب على أيدي حزب المؤتمر بالأمْسِ القريب.

ودامت الحملة حوالي خمسة أسابيع ولقد دُعمت بعد ذلك، كما سنرى، بحَمْلةٍ أخرى بدأت في الولاية الشمالية الغربية ضِدّ قرار مَنْعٍ وزاري هناك أيضاً، للمظاهرات. ثم قامت حركة عِصْيان مدني في آسّام ضد وزارة حزب المؤتمر بسبب موضوع طَرْد المهاجرين البنْغاليين المسلمين. وبصورة عامة حافظ المتظاهرون في البنْجاب والولاية الشمالية الغربية على سلوكٍ سِلمي لا عُنْفَ فيه رغم حجم المجموعات البشرية المنخرطة في هذه الحركة وكمية السلاح الكبيرة الموجودة على الأرجح في هاتَيْن الولايتَيْن. ولم يكن هناك مجال لتفادي بَعْضَ حوادثِ إراقة الدماء كما حصل في حملات العصيان المدني المتكرّرة التي قادها حزب المؤتمر قبلاً، بخَاصّةٍ في (لاهور) و(أمْرِ سْتَارْ) و(جلَّندورْ) و(كوُجْراتْ). وبلغ التوتّر مداه في البنْجَاب وشارَفَ حَدَّ الإنْفجار.

وفي ٢٠ شباط ـ فبْراير ـ كان الاعلان الكبير للمِسْتِر (أتْلي) في البرلمان البريطاني. وبعد خمْسة أيام وصل السِرْ خُضْر حياة إلى اتفاق مع الرابطة. وكان من بُنوده إطلاق سراح المعتقلين السياسين ورَفْع الحَظْر عن الاجتماعات العامّة، والرابطة من جهَتها تُوقِفُ العصيان المدني. ثم فاجأ السِرْ خُضْر العديد من الناس بعد أيام واستقال من مَنْصبه مُفسّراً ذلكَ بَقَوْلهِ: إن الواقعية في أمور البنْجاب أمر ضروري الآن لان البريطانيين سيُغادرون شِبْه القارّة. ويستحيل وجود هذه الواقعية مع وجود قليل من الاتحاديين المسلمين يخدمون كمُعَدّلٍ بين الرابطة من جهة والهندوس والسيخ من جهة أخرى. وكان في نيتِهِ تَرْكَ الساحة السياسية فسيحة للرابطة التي تُمثّل أكثريّة المسلمين في ولايةٍ غالبيّتها مسلمة. وكان السر خضْر في تصريحه هذا... كريماً.

وبقيت الأحجْيَة (العَدَديّة) في المجلس التشريعي كما كانت قبلاً. فالرابطة التي تدعو لقيام باكستان لم تحظَ بتأييد الهنْدوس والسيخ، وبما أن عدد اعضائها لايُشكل الغالبية فشلت ببساطة، رغم مظاهر جهود قويّة لتجميع أصوات كافية من أجل تَشْكيل حكومة في الولاية. ربما أعاقتْ الاختلافات الداخلية للزعماء المحلين الرابطة؛ إذْ رَغْم دعوة الحاكم السر (إيفانْ جنْكِنْزْ) لـ (نواب مَمْدوتْ) ليُقدم الأخير اسماء زملائه يبدو انه لم يفعل ذلك أبداً. ولما واجَهَ السِرْ (جنكِنْزْ) هذه المعضلة المشابهة لما واجهه السِر (بِرْتْرانْدْ غلانْسْ) قبل عام من ذلك، عمد السِرْ (إيفانْ)، بعد عدّة أيام من المحاولات، ـ كما كان سيفعل على الأغلب السِرْ (بْرِتْرانْدْ) ـ إلى إعلان الحكم الفردي ـ الشخصي ـ طِبْقاً لنَصٍ تشريعي لحكومة الهند (بنْد ٩٣).

وأصبح هذا الأمر شيئاً لم يكن هناك مجال لتحاشيه بخاصة لأنّه في ٤ آذار ـ مارسْ ـ وبينما كانت المباحثات مستمرّة، حَدَثَ ما كان يُخْشى وقوعه: انْفَجَرَ التوتر الطائفي في الولاية النموذجية. وبدأت الاضطرابات الوحشية في شوارع (لاهور) وانْتَشرت اخبارها بسرعة. فالترتيبات التي اتفق عليها السِرْ خُضْر مع الرابطة، وإطلاق سراح المعتقلين المبتهجين من حركة العصْيان المدني، وسقوط الحكومة الائتلافية ومحاولة الرابطة تشكيل حكومة محلها... كل ذلك أدّى لِحصُوُل مظاهرات مقابلة من الهندوس والسيخ، ونَقَلَتْ التقارير عن زعيم الطائفة الأخيرة السيد (تَارَاسنْغ) أنّه اسْتَلَ سيفه بأسلوب مُتهورٍ عنيف في إحدى المظاهرات خارج بناية المجلس التَشْريعي وحَثّ إخوته من أبناء الطائفة على الإطاحة بالمسلمين. ويبدو أن هذه الحادثة لم تتأكّد تماماً ولقد ذكر بَعْض الرسميين البريطانيين انها كانت إشاعة فقط؛ ولكنْ صَدَّقَها عامة المسلمين والسيخ على السواء بصورة واسعة وكان هذا هو الأمر المهم. فلقد فَسَّرَتْهَا الطائفتان على انّها أمر خطير للغاية، فالسيف بالنسْبة للسيخ هو أحد الرموز الخَمْسة في ديانتهم واسْتلالُ السيف في حفْلٍ معْناهُ الإعلان الديني للحرب.

وفي بَحْرِ ساعات قليلة دَخَلتْ (مُلْتان) في الموضوع، وهي على بُعْد مِئتَيْ ميل إلى الجنوب الغَربي من (لاهور)، وما أن جاء يوم السادس من آذار ـ مارسْ ـ إلا وكانَتْ اجزاء كبيرة من (لاهور) ومن (أمْرِسْتارْ) ـ التي قُمِعت فيها الاضطرابات التي بدأت في ٢٤ شباط فيبراير ـ طُعمْةً للنيران فالأضرار في هاتيْن المدينَتَيْنْ كانت... أسوأ مما حَدَث في لاهور،

لقد دُمِرَ سبعمئة وخمسون منزلاً في (مُلْتان) و(أمْرِسْتَارْ) وأصبح أربعون ألفاً بلا مأوى. وفي الغد حَدَثَت اضطرابات في (كوْجْرانْ وَالا) و(سيالكوت) و(جلَنْدورْ) و(فيروز بورْ)؛ وفي ليل السابع من آذار ـ مارس ـ اشتعلت النيران في المركز الجبلي (مَرّي) وكانت في ذلك الفصْل من السنة نصف فارغة، على أيدي مهاجمين مسلمين أكثرهم من منطقة (حَضَره)، فحرقوا وسلبوا الكثير من أفضَل مُمْتلكات الهنادكه والسيخ. وفي نفس الوقت تقريباً بدأت الاضطرابات في مدينه (راولبنْدي) ولكن القوات البريطانين المتواجدة هناك استطاعتْ إخمادها جزئياً، وكانت الصورة العامة للاضطرابات في المدن هي عمليات الإحراق المرتّبة أمّا في قَلْب البنجاب فقد استعملت الاسلحة الناريّة في المدن والقرى في كثير من الأحيان مع أن ضباط اللواء السابع كتبوا أن الحراب وغيرها من الأدوات البدائية كانت أهم الأسلحة المستعملة.

وهنا نَصِلُ إلى اسوأ وَجْهٍ للمشلكة: وهي الطريقة المذهلة التي انتقلت بها الاضطرابات إلى القُرى حيث تَصْعُب تهدئتها بخاصّة على إدارة ضعيفة، كما حدث في اضطرابات (نواكالي) و(بيهار) قبلاً. في البدْء كان من المستحيل معرفة الصورة الواضحة لما كان يجري في ريف البنجاب وللمناطق الثلاث الشمالية التي تُجاور (حَضَرة) في الولايه الشمالية الغربية. فلقد انهارَ النظام في الواقع لفترة من الوقت وحَسْب بيانٍ حكومي صدر في العشرين من آذار ـ مارس ـ وصل مجموع القتلى في البنجاب حتى ذلك الحين (٢٠٤٩) شخصاً إلا أن التقديرات غير الحكومية كانتْ أعلى بكثير وانشَغَلَ حوالي عشرين الف جندي في محاولةِ إعادة النظام.

ولقد ظهرت أعمال بربريّة من قِبَل الطوائف الثلاث ولو أنها لا تَصِلَ، بالطبعْ، إلى الحدّ الذي حدث عند التَقْسيم. وكان الهندوس والسيخ هم المعتدين الرئيسيين في أواسط وشرق البنجاب ولكن في قرى الشمال حيث عمت الفوضى تقريباً، وحيث كانت الغالبيه مسلمة تفوق في عددها الهندوس والسيخ، تعرضَ الأخيرون لهجمات غاضبة أذهلت البريطانيين والمراقبين المحايدين. ويجب أن نذكر أن ذلك كان جزءاً من سلسلة ردود الفعل الفظيعة. وبدأت الأمور في (كلْكتّا) ثم (نواكالي) و(بيهار) و(غارموكتوار) و(لاهور) و(راولبنْدي) ولكنّ التركيز على السيخ لم يكن مَنْطقياً حسب التخمينات لأن مذابح المسلمين المخيفة في شرق البلاد و(بيهار) وغيرها كانت كلها تقريباً من صُنْع الهنْدوس.

وحسب هيئة السيخ الخاصّة ـ العمامة واللحيه الطويلة ـ كان من السهل التعرف عليهم أكثر من الهندوس؛ وفي نَظَرِ بُسَطاء المسلمين آنذاك في الريف كانت الطائفتان الهندوس والسيخ من المشركين، و لم يقم أي وزن لكثير من التوجهات الدينية المتشابهة بين السيخ والمسلمين فلقد عاد الماضي، الذي كان قبْل قرْنٍ من الزمان، حيّاً مرّة أخرى وبذلك عادت مشاعر الكراهيّة المريرة لمظالم حُكْم السيخ وإذلالهم للمسلمين إبان سيطرة (رانْجيتْ سنغ) وكما لاحظ (كارو): يشعر الانكليزي أحياناً بالدهْشة في هذه المناطق الشمالية، لِعَودَةِ أعمال وأقوال الماضي حيّةً في أذهان رجال اليوم، أضفْ إلى ذلك أن اغلب السيخ في تلك المناطق لم يكونوا من المُتَدَينين القُساة أو من الطبقة التجارية بحيث يُصبحُ غناهم سبباً لإثارةِ حَسَدِ الآخرين. وصف الجنرال (فْرَنْكْ مِرْفي)، الذي كان آنذاك رئيساً لأركان القيادة الشمالية، الأحداث التي مرّتْ في آذار مارس ـ المضطرب، كما شاهدها في (راو لبندي) وفي جولاته الريفية، وأبرَزَ وَصْفُهُ الحي العارض المفاجئ للشعور القوي بالعداء للسيخ في ريف غالبيته مسلمة.

بدأ الهجوم الرئيسي ـ إذا كان باستطاعتنا استعمال هذه التسمية ـ في ليل ٧ آذار على ما أظن عند ما كنا نحتفل، لسوء الحظ بقدوم ابْنَتَيْنا، في نادي القيادة ولم يكن هناك أيّ إنذار واضح رغم أن بَعض الاضطراب الأولي البسيط جعلنا نَضُعُ الفيلق البريطاني في (راولبندي) قبل وقتٍ قصير. كان الهجوم مُتناسقاً وواسعاً في جميع أنحاء الريف مما أوْحى بأنّه كان مُعداً مما جعل من الصعب التعامل معه لاختلافه الكلي عن نمط الاضطرابات الطائفية المعتادة في المدن الكبيرة لقد حَلّقْتُ بطائرة صغيرة على ارتفاع مُنْخفضٍ فوق قُرى منطقة (راولبندي) حيث كان السُكان خليطاً من المسلمين والسيخ. وكان المنْظَر مُرْعبا، كان بالإمكان رؤية الجثث في الحقول خارج القُرَى مِثْلَ الأرانب المصادة. وكان الهجوم كله تقريباً، كما ذكر بعض الموقوقين من الناس، موجّهاً ضدّ السيخ على مايبدو. وأذكر ان أحد معاونيّ نزل إلى محطة (راولبندي) للحصول على تذكرة نقل، وعاد أصفر الوَجه قائلاً: إنه بينما كان في مكتب التذاكر شَعَر بثقلٍ على ظْهرِه ولما التفت وجد أحد السيخ قتيلاً إثر طعنةٍ في ظهره ولم يذكر أحد من المارةِ أنه رأى الفاعل؛ كذلك أذكر أن زوجة أحد الضباط المسافرة بالقطار سمعت أنيناً وصراخاً عند ما وقف القطار خارج (شَكْلاَ لا) ـ وكان الوقت حوالى الفَجْر ـ ففتحت إحدى النوافذ لترى السيخَ يُسْحَبون من عَرَبات القطار

ويقطعون إرباً على جانب سكة الحديد، فأصابها الرعب الشديد وبدأت تصْرخ وعندها صَعَدَ العربة واحد من المجموعة وقال لها: لاتخافي ياسيدتي لن يُؤذيك أحد، علينا أن نقوم فقط بهذه المهمة ثم نترك القطار ليستَمر في سيره. ويرجع سبب الهجوم على السيخ لأمور تاريخية: منها عادة (رانْجيت سنْغ) في إرهاب وظلم المسلمين، كذلك هناك عامل اقتصادي إلى حدٍما. واذكر أنّني سألْتُ عن أحوال (البرَهمانيين) في (سُولْتْ رنْجْ) حيث كان لهم قُرى عدّة وكان منهم، في بَعضِ الأوقات، فصيلة من أدِلاّء سلاح الفرسان، وكان عدد قليل منهم في (هُودْسُنْ هُوْرْسْ). وأظنّ أنهم خرجوا من هذه الاضطرابات دون ان يَمَسَّهُم سوء.

ومهما كانت تَفْسيرات الاضطرابات الموجهة ضدّ السيخ في المناطق الشمالية، فلقد كان بها أثرٌ خَطير على ماجرى عام ١٩٤٧ وأدّتْ إلى توقعاتٍ أكيدة ولقد برزت هذه الحقيقة بوضوح خاصّ في كتاب (مُوْنْ)؛ فالمختصون بأمور البنْجاب، من أمْثاله، بدأوا يتكهنون أنه بعد الذي حل بالسيخ من إصابات في مناطق تواجدهم كأقليّة، بخاصة الطبقة التجارية فيهم، وفي الأرياف البعيدة ذات الغالبية، المسلمة، وبعد إتْهامهم بضعْفٍ في الرجولة، الامر الذي ردّده الهنْدوس والمسلمون على السواء، سيعمد السيخ لامحالة للانتقام في منطقةٍ يختارونها وستكون لاشكّ إلى الشرْقِ من (لاهور) فأعدادهم هناك أكثر من تعداد المسلمين بخاصة في الأرياف فهي قَلْب تجمعات السيخ حيث تَقْطن مجموعات هائلة من فلاحي (الجاتْ سِنْغْ) وهم فئة لا يُسْتَثار غَضَبُها بسهولة، لكنها قادرة على القيام بأقْسى الأعمال الوحشية. وكان السؤال الوحيد آنذاك: متى سيحصل ذلك؟ وبرأيْ (تاكِرْ): منذ أوائل، ابريل، توقعتْ القيادة الشمالية في (راولبنْدي) مرور شهرين على السيخ قبل أن يبدؤوا حربهم الانتقامية.